# رؤية ياسر عرفات للنظامين الإقليمي والدولي

د. محمد خالد الأزعر*

## إطلالة منهجية:

تتأتى أهمية التعرف على رؤية عرفات للنظامين العربي والدولي من تعامد ظاهرتين وتفاعلهما على نحو استثنائي.. أولاهما، مركزية دور عرفات القيادي علي الصعيدين النظري والتطبيقي داخل النظام الفلسطيني بأطواره وهيئاته المختلفة على مدار ما يقرب من أربعة عقود. ثانيتهما، مركزية الأدوار والمقاربات التي انطوت عليها تفاعلات النسقين العربي والدولي، فكراً وحركة أيضاً، بالنسبة لسيروه القضية الفلسطينية التي حمل عرفات لوائها، وذلك بالمعني التاريخي الممتد، قبل مرحلة صعوده القيادي وأثناء هذه المرحلة وبعدها.

لقد طبع عرفات مقولات حركة فتح ومقارباتها الفكرية والسياسية بتكييفاته ومنظوراته، وكان له باعاً كبيراً في تحديد توجهاتها إزاء البيئة العربية والإقليمية والدولية وما يعتمل في هذه البيئة من قضايا تتعلق بفلسطين ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. وبدورها كانت فتح ومازالت واحدة من أبرز القوى الفلسطينية وأكثرها تأثيراً في تحديد حركة السياسة الفلسطينية وإنجازاتها وتوجهاتها سواء داخل منظمة التحرير الفلسطينية أو في عهد السلطة الوطنية، وهما المظهران الغالبان على النظام الفلسطيني خلال حقبة عرفات القيادية. وعليه، فإن السياسات الفلسطينية العربية والإقليمية والدولية ظلت إلي حد بعيد محفوزة ومحفوفة بمنظورات عرفات، الثابتة منها والمتحولة عبر مراحل عهده.

وبهذا الخصوص يصح الاعتقاد بأن متابعة هذه المنظورات عبر خطاب عرفات الفكري النظرى والسياسي العملي، يمثل أحد مداخل تفهم السياسة الفلسطينية العربية والدولية بصفة عامة منذ أواخر ستينيات القرن الماضي. وقد يستنتج البعض من هذه القناعة أن السياسة الفلسطينية لم تكن مقيدة بالمأسسة وحيثيات الأداء الديمقراطي، باعتبار أنها تحددت من خلال منظور القائد أو الزعيم عرفات (صاحب الكاريزما القيادية الملحوظة).

أغلب الظن أن استنتاجاً كهذا لا يجافي الحقيقية كثيراً. ففي التحليل الأخير، ما كان لكاريزمية عرفات وتأثيره البارز على حركة النظام الفلسطيني من الداخل أن تمر بدون أن تترك تداعيات على توجهات هذا النظام الخارجية. ومع ذلك، ينبغي إبداء بعض التحفظ .. فعرفات لم يكن منظراً إيديولوجياً كبيراً ولا يندرج في مصاف القادة الذين خلفوا ميراثاً فكرياً عميقاً أو واسعاً كحال بعض القادة التحرريين. بل أنه لم يستحوذ على قدرات خطابية عالية من الأصل[1].

---

* باحث فلسطيني مقيم في جمهورية مصر العربية ، سفارة فلسطين في القاهرة.

## رؤية ياسر عرفات للنظامين الإقليمي والدولي...

وهو على قدراته القيادية ودورة في صناعة السياسة الفلسطينية وقراراتها الداخلية والعربية والدولية، كان يحاول تظهير رؤاه وآرائه ثم موافقة العملية بشيء من المأسسة، موحياً بأنه إنما ينطق بلسان الأغلبية الفلسطينية. وقد ساعده على هذا الأداء موقعه في حركة فتح، التي احتكرت دور التنظيم الأكبر والأقوى في المشهد السياسي الفلسطيني لعقود. ولعلنا سنلاحظ التشابه بين كثير من رؤاه للواقعيين العربي والدولي ومقولات فتح ومنطلقاتها ولاسيما في العقدين الأولين من عهده.

لكننا قد نلاحظ أيضاً أن عرفات لم يكن قائدا تجريبياً بالكامل وأنه كان يستحوذ بالفعل على طاقة التنظير، لو أنه أولي عناية لهذا الجانب من سلوكه القيادي. من يتابع أفكاره حول كثير من هموم النظامين العربي والدولي وشواغلهما وعلاقتهما ببعضهما البعض وبمسار القضية الفلسطينية لابد أن يتنبه لهذه الناحية. ويلفت الانتباه أيضاً أن براجماتية عرفات، التي يمكن التدليل عليها بتقلباته وتحولاته الفكرية والسياسية، وبعضها كان فارقاً خلال العقدين الأخيرين، لم تكن بلا ضفاف وحدود. نود القول أن تحولات عرفات في سياساته العربية والدولية، التي ألحقت به وصف السياسي المحترف بأكثر من صفة رجل الإيديولوجيا والمبادئ الدوجمائية الصلبة[2]، كانت تجري إلي أفق معلوم لا يتجاوزه. ويبدو أن استغلاق معرفة حدود الثبات والتحول في منظورات عرفات هي التي تسببت في حيرة الكثيرين إزاء توصيفه وإدراك مغزى وأبعاد حركته السياسية. وآية هذا الاستغلاق أن بعض الذين دمغوا عرفات بالتراجع عن الثوابت الوطنية والقومية وصولاً إلي حد تخوينه أحياناً ورميه بالانصياع للإملاءات الإسرائيلية والأمريكية، كانوا مضطرين في بعض الأحايين إلي الثناء على مبدأيته وصلابته خلف الثوابت الوطنية واستعصائه على التطويع والانقياد لأعتى الضغوط[3].

والواقع أن الحيرة في تصنيف عرفات، أفكاره وسياساته وموافقة العربية والدولية، وفقاً للمدارس الشائعة في الرحاب العربية (وطنية إقليمية صرفه، اشتراكية أو شيوعية، ليبرالية، إسلامية...) تتصل ببعض المعطيات. التي من بينها فيما نتصور: عدم وجود ميراث فكري أو نظري متكامل للرجل يمكن الاستناد إليه، وعدم جمع أفكاره وشروحه الفكرية المبثوثة في أضابير مختلفة كتصريحاته ورسائله وخطاباته في مناسبات متباينة. ولنا أن نلاحظ بهذا الصدد كيف أن تراث التنظيم الكبير الذي ساهم عرفات في إنشائه والسهر عليه، حركة فتح، لا يساهم في تسهيل هذه المهمة. نظراً لقضاضية الإطار الفكري لهذا التنظيم وصعوبة احتسابه على واحدة من المدارس الإيديولوجية بشيء من الصرامة البحثية. وقد نضيف إلي المعطيات المثيرة للجدل بشأن تصنيف منظورات عرفات ورؤاه، أن هذا الزعيم الفلسطيني اضطلع بحركة تحرر وطني ضد نمط استعماري عز نظيره تاريخيا، نمط أنتج صراعاً شديد التعقيد متعدد المصادر والأبعاد، تختلط

داخله النوازع الوطنية بالقومية بالدينية، وترتبط به مصالح أطراف كثيرة بشكل مباشر أو غير مباشر... الأمر الذي لربما فرض عليه مراعاة هذه الخصائص جميعها وهو يعالج إدارة الصراع والمرور بقضية الوطنية إلي شطئان آمنة بأقل قدر من الخسائر وأكبر قدر من الأرباح، وبخاصة على مسارات كسب الأنصار والحلفاء والمحازبين وإرضاء المعنيين بالصراع من خلفيات ومنطلقات مختلفة.

على إننا بعد مراعاة هذه الصعوبات، نستطيع الوفاء بهدف هذا الجهد والتعرف على رؤية أو رؤى عرفات للمحيط العربي والإقليمي والدولي بشيء من الاطمئنان. إذ إن هذه الصعوبات لا تعني العجز بالمطلق عن المعالجة البحثية ومحاولة تحقيق الهدف بأكبر قدر من التزام الموضوعية والتجرد. ونحسب أن المنهجية الأوفق في هذا المقام هي التي تعتمد أطروحات عرفات وأفكاره كما عرضها وأفضى بها بنفسه. ولذا قد يسترعي نظر المتابع أننا سنلتزم بطروحات الرجل ومقولاته كما وردت على لسانه، وبشيء من التفسير المسبق أو اللاحق الذي لا يؤثر على محتواها وإنما يلقي عليها الأضواء والتوضيحات بمعزل عن الأحكام المسبقة. وربما كانت نقطة البداية الأنسب منهجياً أيضاً هي استعراض موجز للبيئتين العربية والإقليمية والدولية اللتين أحاطتا بعرفات عند صعوده إلي واجهة السياسة الفلسطينية.. وهو ما سنلتزم به في مواضع لاحقة حين نستطلع منظور عرفات للنظامين العربي ولدولي بعد أن أضحي في بؤرة غمارهما مع قضيته الوطنية.

## عرفات والمشهد العربي والدولي.. نظرة شاملة:

قبيل ظهور حركة فتح وعرفات، وعلي مدار العقدين اللاحقين للنكبة الفلسطينية كان السائد في العالم العربي هو التوجه نحو الوحدة العربية، وطغيان مفهوم الأمة الواحدة على برامج عمل كثير من الأحزاب السياسية. داخل هذا الإطار، كانت قضية فلسطين تبدو قومية بامتياز. كان هناك شعور شبه فطري بأن إسرائيل ومشروعها الصهيوني خطر على العرب أجمعين..على أمنهم القومي قطرياً ومجتمعين (النظام العربي القومي). وكانت القناعة أن مواجهة هذا الخطر مهمة العرب أجمعين لا مهمة فلسطينية فحسب. وقد ترجمت النخب السياسية والثقافية العربية هذا الفهم في أدبياتها وسلوكياتها إلي حد ملموس.

وفي هذه الأجواء، بل وفي العام الذي شهد الوحدة المصرية السورية بكل آمالها تجاه فلسطين، تبلورت فتح وجاءت قناعاتها مخالفة تقريباً للمنهج السائد. فمن هنا دعت إلي "عمل فلسطيني مستقل من كل عمل حزبي عربي يعتمد حرب التحرير الشعبية وسيلة للتحرير والشعب الفلسطيني طليعة لذلك والأمة العربية من ورائه ظهير" ومن هنا كان شعارها "حركة فلسطينية الوجه عربية القلب".

ورغم أن هذا التكييف لم يستقطب الكثيرين في بداياته، لتعارضه مع المد القومي والوحدوي، إلا أنه لقي اهتماماً أكبر بعد انفراط تلك الوحدة وحدوث تشاد عربي وتنازع على أكثر من خلفية، كحرب اليمن والانشطار بين ما سمي بمعسكري التقدميين والرجعيين وانتصار الثورة الجزائرية. لكن شعبية فتح ومنهجيتها بلغاً أوجهما غداة هزيمة 1967. إذ تهيأ لها نسبياً مناخ عربي رسمي وشعبي موات، باعتبار أن منهجها فيما يتعلق بعجز الأنظمة العربية عن تحرير فلسطين والحاجة إلي عمل فلسطيني مسلح ومستقل[4]. وهنا انتقلت فتح، وعرفات بالذات، من حركة متعارضة مع النظام العربي إلي أن تصبح جزءاً منه، يختلف معه في الاجتهادات ولكن لا يقطع معه. ذلك أن النظام العربي ساعدها على تبووء مركز قيادة السياسة الفلسطينية، وحدث تلاق بين مصر الناصرية وفتح عرفات بصورة واضحة. ففتح كان بوسعها مشاغلة إسرائيل والانخراط في حرب استنزاف ضدها، في الوقت الذي راح فيه عبد الناصر يعيد بناء قواته استعداداً لتطبيق شعاره بأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة[5].

على أن انتقال فتح وعرفات إلي قيادة منظمة التحرير الفلسطينية بمساعدة عربية واضحة، وتحولهما إلي جزء من النظام العربي، لم يحل دون وقوع الاحتكاكات، وأحياناً الصدامات المروعة، الفلسطينية مع بعض قوي النظام العربي، فالمنظمة تحت قيادة عرفات وقعت تحت ضغوط التناقضات العربية فيما يخص المواجهة وإدارة الصراع مع إسرائيل. لاسيما بعد زوال صدمة النظم العربية في حرب 1967، ثم بعد حرب أكتوبر 1973 حين حدث التباين حول حدود تسوية الصراع، وصولاً إلي بداية تسعينيات القرن الماضي وانخراط قوي النظام بما فيها المنظمة في عملية التسوية بناء على أهداف متقاربة.

وبصفة عامة، لم يكن مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية العربية مقابل عدم تدخل الأخيرة في شئون المنظمة، الذي يفترض أن المنظمة دأبت على العمل به في عهد عرفات (كما في عهد سلطة أحمد الشقيري)، لم يكن هذا المبدأ كافياً لمنع الاحتكاكات الفلسطينية العربية. فالمنظمة عولت على الدول العربية لمساعدتها في مجالات الدعم السياسي والتسليح وتوفير قواعد التحرك وتسهيل التواصل مع الشعب الفلسطيني في الملاجئ.. ومن جهتها مارست الدول العربية محاولات لضبط سلوك المنظمة والتأثير في سياساتها وخياراتها من حيث أهداف النضال ووسائله.

وهنا يصح القول بأن اختلاف المنظمة بقيادة عرفات عن الدول العربية من حيث البنية والأهداف والوسائل، أدي إلي أن كان الطابع الصراعي هو الغالب على علاقة الطرفين[6]. وقد ثبت بدراسات مختصة، قد تكون تقادمت نسبياً لكنها تظل موحية، أن زهاء 90 في المئة من التفاعلات السياسية للمنظمة قد جرت مع محيطها الإقليمي، العربي وإسرائيل أساساً.. وأن نحو 60 في المئة من هذه التفاعلات مع دول النظام العربي كانت ذات مضمون صراعي وليس تعاونياً[7].

وذلك على غير المتوقع من إطار إقليمي يشارك المنظمة وشعبها في روابط قومية وتاريخية لا حصر لها.

ولأن المنظمة أمنت دوماً بأن هدف تحرير فلسطين (كلياً أو جزئياً) لا يمكن تحقيقه بالكفاح الفلسطيني المنفرد، فقد سعت لئن تكون موضع ثقة الدول العربية جميعها. وأغلب الظن أنها لم تفلح دوماً في ذلك. بالنظر إلي صعوبات الواقع العربي. وكانت هذه الصعوبات سبباً في سعي المنظمة للتكيف مع هذا الواقع، مع أنها التزمت جانب المبادرة في بعض الأحيان. ولعل أبرز مظاهر هذا التكيف، اتجاهها إلي الاستجابة لمناخ التسوية الذي ساد بعد حرب أكتوبر 1973، وإعلانها هدف السلطة الوطنية في الضفة وغزة.. إذ كما يري البعض أن احتمال بقاء الثورة الفلسطينية في الملاجئ العربية في حال حدوث التسوية كان يصل إلى نقطة متدنية جداً[8]. ويحتسب في جانب قدرة المنظمة على المبادرة عربياً، أن توجهات الدول العربية إزاء إدارة الصراع مع إسرائيل تأثرت غالباً بما تطرحه المنظمة وسياستها الفلسطينية. وذلك إلى الدرجة التي تبدو فيها التسوية العربية الإسرائيلية الشاملة، بمعزل عن إرادة الطرف الفلسطيني، هدفاً غير مضمون، وربما مستحيل الإنجاز وهو ما كان عرفات يردده حتى لحظاته الأخيرة. هذا فضلاً عما اضطلعت به المنظمة، عرفات شخصياً، من عمليات وساطة ومساع لتخفيف حدة التوتر ونزع الفتائل خلال بعض الأزمات العربية البينية.

على الصعيد الدولي، ظهر عرفات على رأس السياسة الفلسطينية وقد انشغل العالم بمشهد الصراع والتنافس بين المعسكرين الرأسمالي (الغربي) بزعامة الولايات المتحدة والاشتراكي (الشيوعي الشرقي) بزعامة الاتحاد السوفيتي، فيما انضوت قوي دولية أخرى تحت لواء ما سمي معسكر أو مجموعة عدم الانحياز التي تصدرت واجهتها الهند ومصر ويوغسلافيا. ومن المعروف أن هذا المشهد، حيث القطبية الثنائية في النظام الدولي، تعرض لتحولات درامية كبرى انتهت بسقوط أحد القطبين في مستهل تسعينيات القرن الماضي وأن السياسة الفلسطينية (والعربية والدولية) تأثرت بمراحل هذا النظام، إبان الحرب الباردة وعند أفولها وانتهائها لصالح المعسكر الرأسمالي. ولم يكن عرفات بعيداً يوماً عن قراءة هذا الواقع الدولي بثوابته وتحولاته ومحاولة التعامل معه باعتباره عاملاً بالغ التأثير بالنسبة لمجريات الصراع في المنطقة العربية وفلسطين.

في التفصيلات سنلاحظ أن الولايات المتحدة وقفت موقفا عدائياً من الشعب الفلسطيني وأهدافه واستراتيجيته السياسية والعسكرية العنيفة معتبرة إنها تمثل خطراً على الشرق الأوسط ومصالحها فيه. وهي حذرت الدول العربية من التعامل مع منظمة التحرير عند قيامها بزعامة الشقيري، ولم تعدل عن هذا الموقف بعد صعود عرفات إلي قيادتها. كلك رفضت الولايات المتحدة مسألة الاستقلال الفلسطيني طويلاً، إلي أن عدلت عن هذه الممانعة الكاملة باتجاه إلحاق الفلسطينيين

**رؤية ياسر عرفات للنظامين الإقليمي والدولي...**

بكيان أردني فلسطيني يتولى إبرام تسوية نهائية مع إسرائيل، ولم يكن موقفها أقل معارضة للقرارات الأممية العاطفة على الحقوق الفلسطينية. كما إنها علقت الاعتراف بمنظمة التحرير منذ منتصف سبعينيات القرن الماضي على شروط بعينها (الاعتراف الفلسطيني بإسرائيل وبالقرارين الدوليين 242 ،338 ونبذ ما أسمته الإرهاب). وفي الأيام الأخيرة من عهد رونالد ريجان (1988) فتحت واشنطن حواراً مع المنظمة بعد قبول الأخيرة بهذه الشروط على لسان عرفات. غير أن ذلك "الحوار" توقف بعد عام ونصف تقريباً بدون التوصل إلي نتيجة محددة[9]. وعندما اضطلعت واشنطن بالإعداد لمؤتمر مدريد للتسوية في الشرق الأوسط (أكتوبر 1991) قبلت فقط بإلحاق ممثلي منظمة التحرير بالوفد الأردني.

ويلفت الانتباه أن واشنطن قدمت للجانبين الفلسطيني والإسرائيلي مجموعة من الضمانات المتناقضة[10]، ساعية إلي إطلاق عملية التسوية الفلسطينية /العربية الإسرائيلية تحت شعار ما يعرف بالأرض مقابل السلام. لكنها لم تبد لاحقاً حرصاً على ضماناتها للجانب الفلسطيني. وقد تجلي هذا الاستخفاف بصورة واضحة في رعايتها الشكلية لمبادئ التفاوض الفلسطيني الإسرائيلي وفق صيغة أوسلو (1993) والتي بلغت ذروتها بإعطاء إسرائيل ضمانات بعدم التقيد بحدود 1967 عند إقامة الدولة الفلسطينية (إبريل 2004)[11].. وبذلك فإن الاعتراف الأمريكي بصيغة الدولتين وضرورة قيام الدولة الفلسطينية إلي جانب إسرائيل في أواخر عهد الرئيس بيل كلينتون والتأكيد على ذلك في عهد خلفه (جورج بوش الابن) لا يبتعد كثيراً عن التصور الإسرائيلي لحدود هذه الدولة ومحتواها الجغرافي والسياسي. كما أن الترحيب الأمريكي بزعامة عرفات واستقباله بقبوله حسن لم يحدث قبل الاستجابة للشروط الصارمة التي سبق أن كرستها لهذا الاعتراف بمعرفة شريكها العضوي إسرائيل. وآية ذلك أن واشنطن عزفت عن عرفات وسعت لنبذه ورفضت شراكته السياسية (التفاوضية) بناء على تغير الموقف الإسرائيلي منه. خاصة بعد اتضاح استعصامه ببعض ثوابت قضيته الوطنية ورفضه للتفريط بهذه الثوابت.

على الجانب الآخر من المشهد الدولي، نلاحظ أن الاتحاد السوفيتي لم يتجاوب بسرعة مع أفكار فتح وعرفات عند انطلاقتهما. وبعد حرب 1967 تغير هذا الموقف نحو التعاطف السلبي مع الأهداف الفلسطينية، ثم خطا إلي الأمام باتجاه إقامة علاقات غير رسمية مع منظمة التحرير وزعيمها بعد التعرف عليه، وذلك من خلال التنظيمات الشعبية. ولعل موسكو تعرفت أكثر على عرفات ونهجه المميز بعد رفضه للعمليات الخارجية التي كانت تقوم بها بعض التنظيمات الفلسطينية التي لم يؤيدها عرفات. فقط غداة حرب أكتوبر 1973، تقدم الاتحاد السوفيتي خطوات كبيرة نحو منظمة التحرير وأهدافها كحركة تحرر وطني. وراح يمنحها دعمه السياسي والعسكري

في حدود هدف تحرير الضفة وغزة والقدس الشرقية وتطبيق القرارات الدولية الخاصة بالقضية الفلسطينية.

مع هذا، وعلى رغم ما أشيع حول ارتباط الاستراتيجية الفلسطينية بالسياسة السوفيتية وبالمعسكر الاشتراكي تجاه الشرق الأوسط، إلا أن الواقع لم يثبت صحة هذا الزعم. فقد انتقد عرفات السياسة السوفيتية أحياناً[12]. غير أن السياسة الفلسطينية ظلت تعي حاجتها للدعم السوفيتي كقطب مؤثر في المنطقة والعالم. وغالباً ما كانت مبادرات موسكو مقبولة من الجانب الفلسطيني ومن عرفات، كونها اقتربت من المفهوم الفلسطيني للتسوية وبخاصة بعد تبني برامج الدولة المستقلة في حدود 1967[13]. وهو ما لم تتوقف موسكو عنه أو تتراجع، حتى بعد زوال هيبتها كقطب مواز لواشنطن وتفكك معسكرها السياسي والعسكري وإعادة علاقتها الدبلوماسية مع إسرائيل وسماحها بهجرة اليهود السوفيت إلى هذه الأخيرة. بيد أن هذه المستجدات ألقت بظلالها على السياسة الفلسطينية، وكانت من بين أهم دواعي التفكير فلسطينياً، ومن لدن عرفات بالذات، في إعادة النظر في الأهداف والوسائل النضالية[14].

لقد أبحر عرفات بالسياسة الفلسطينية في إطار هذين المشهدين العربي والدولي. ولم تكن رؤاه لهما معزولة عن مجرياتهما وواقعيهما المتغيرين. كما لم تكن رحلته عبرهما رحلة ميسورة ومأمونة بالنسبة لقضيته الوطنية. وفي المراحل القليلة جداً التي كانت رياحهما مواتية له ولفلسطين، حققت السياسة الفلسطينية مكاسب كبيرة. ومن ذلك تعامد النظام العربي مع المعسكر الاشتراكي عام 1974 على هدف دعوة منظمة التحرير لإلقاء كلمة فلسطين في الجمعية العامة للأمم المتحدة. فحينئذ وقف عرفات متحدثاً عن فلسطين مكرساً قضيته على الصعيد الدولي، ومكرساً في الوقت ذاته زعامته العربية والدولية[15]. هذا في الوقت الذي حدث فيه عكس ذلك إلى حد بعيد في الأيام الأخيرة من قيادة عرفات وحياته إذ أن معاكسة الرياح له عربياً ودولياً، في ظل التشظي العربي وزوال الحليف الاشتراكي الدولي تماماً، أفضيا إلى استفراد التحالف الإسرائيلي الأمريكي به، ومحاصرته والحيلولة دون تحركه عربياً ودولياً.. بل وربما فلسطينياً أيضاً.

كانت هذه هي الملامح الكبرى للنظامين العربي والدولي فكيف رآهما عرفات؟!.

## أولاً: عرفات والنظام العربي:

في خطابه السياسي وأحاديثه وتصريحاته ورسائله تعرض عرفات لعدد كبير من القضايا التي سيطرت على الوجدان العربي الجمعي وشغلته.. كالوحدة العربية وعلاقة الوطني بالقومي والمؤامرات الخارجية ضد الأمة العربية ودور الثورة الفلسطينية إزاء الواقع العربي وصلتها به ودور الظهير الشعبي العربي والخلافات البينية العربية وضرورة معالجتها..

**رؤية ياسر عرفات للنظامين الإقليمي والدولي...**

1. فيما يتعلق بالوحدة العربية، تكاد رؤية عرفات وأفكاره تلتقي وطروحات فتح الأولى. ففي منطلقاتها، حددت فتح أن "شعار تحرير فلسطين الطريقة الوحدة هو البديل الثوري الأنسب لشعار الوحدة طريق تحرير فلسطين. لأن الوحدة لا تتم إلا بالتحام القوي الثورية الواعية ضمن معركة قومية مصرية والوحدة بمعناها الثوري ليست تنسيق جهد عسكري أو قيادة موحدة... الوحدة تفاعل وتماذج شعبي كامل يصيب مختلف أوجه النشاط الإنساني ولا يمكن أن يتحقق إلا بمعركة مصيرية مسلحة، تستفز وتعبئ كل طاقات الجماهير العربية، بشرية كانت أم مادية ومعنوية.."[16]. لا يريد عرفات إذاً انتظار الوحدة العربية من أجل بداية معركة التحرير.. العكس عنده وعند فتح هو الصحيح حيث الوحدة تتحقق في غمرة هذه المعركة. والعمل والانطلاقة الفلسطينية هما المفجر لهذا التوجه.

وهو يعلل هذا الشعار بأن السعي إلي الوحدة عبر الجهد القومي العربي شغل القوي العربية المعنية عن أولوية القضية الفلسطينية. فكان لابد من وضع حد لذلك بإبراز هذه الأولوية.. يقول عرفات "بعد حرب السويس 1956، كان هناك نهوضاً على المستوي القومي. لكن العمل من أجل فلسطين لم يشغل المرتبة الأولي من الأولويات القومية. لم يكن هناك عمل من أجل فلسطين. ولادة فكرة فتح بمنهجها الوطني كانت جزءاً من العمل القومي. إذ ليس قومياً من يفرط بجزء من الوطن أو يبخل عليه تحت شعار شمولية الكل. لم يكن هناك وعاء للعمل الفلسطيني أو مكرس لفلسطين. لم نجد في كل الأحزاب والحركات السياسية من يضع فلسطين رقماً أولاً في عمله القومي.

وهناك أدركنا (أي مؤسسي فتح) أهمية بلورة نشاط مكرس للهم الفلسطيني في دائرة المنطق القومي. ولم تكن الإقليمية هي التي تنشط حوافزنا الوطنية. بل إدراك جوهر الصراع على المستوي القومي والحضاري المتمثل في القضية الفلسطينية. فلابد للشعب الفلسطيني من تأسيس إطاره التنظيمي في سياق حركة النهوض العربي لتلبية المهام الوطنية الفلسطينية المباشرة"[17].

2. لم ير عرفات، والحال كذلك، أي تناقض بين مسيرة الجهود القومية على طريق الوحدة العربية، وبين نشوء إطار ثوري وطني فلسطيني خاص.." لقد تمت بلورة البحث عن الخاص الفلسطيني في العام القومي.." [18] وكان يردد كلازمة من لوازم أحاديثه أن الثورة الفلسطينية هي فلسطينية الوجه عربية القلب، عالمية الجذور والامتداد مع أحرار العالم.. ولكنه غلب الولاء لفلسطين على كافة مقاييس الولاء الوحدوية والقومية الأخرى.. " إن الولاء الفلسطيني هو المقياس الجماهيري الحقيقي للولاء في أمتنا العربية. وهذا الولاء ليس من منطلق إقليمي (ربما يقصد انعزالي وطني) ولكنه العقيدة القومية النضالية في هذه الحقبة من تاريخنا العربي المعاصر..."[19].

ربما كان عرفات مبالغاً في هذا التشخيص، لكنه تشخيص يتسق وتقديره لموقع فلسطين وثورتها في الحقبة التاريخية المعاصرة من تاريخ الأمة العربية.. الثورة الفلسطينية عند عرفات "ليست ثورة عادية لأنها تقاتل على جبهات كثيرة من الشرق الأوسط. هي حركة تاريخية للرد على التحدي الاستعماري من معاهدة سايكس بيكو إلي وعد بلفور إلي قيام الكيان العنصري الصهيوني في فلسطين. الثورة الفلسطينية هي الرد القومي والحضاري على الموجة الاستعمارية الجديدة. وهي تشكل استمراراً تاريخياً للرد العربي والإسلامي على حملات الفرنجة لاستيطان المشرق العربي. وقد نجح أجدادنا في رد الفرنجة ودحرهم والثورة الفلسطينية تحمل الراية ذاتها.. [20]. إلي هذا الحد التاريخي الواسع والمعمق كان عرفات يكيف موقع الثورة الفلسطينية ويعلق عليه الآمال، فهو كان يعتبر أن "الشعب الفلسطيني يأخذ دوره في مقدمة الأمة العربية. إنه رأس الرمح الضارب في هذه الأمة .."[21].

والحق أن التركيز على الهوية الوطنية الفلسطينية في رؤية عرفات العربية (وحركة فتح عموماً) كان مثار تساؤلات، وبخاصة فيما إن كان لهذا التركيز انعكاسات سلبية على الفكرة القومية والآمال الوحدوية العربية. لكن عرفات نفي دوماً هذا التعارض، ومعتبراً أن تحقيق الهوية الوطنية للشعب الفلسطيني والنضال لتحقيق الهوية القومية للشعوب العربية قضيتان متلازمتان. "فنحن لا نستطيع القول بأن الثورة الفلسطينية حققت الهوية الفلسطينية الوطنية بدون أن يصب هذا في النضال التاريخي لتحقيق الهوية القومية العربية التي نحن جزء منها"). وهو يدلل على ذلك بالدور الذي أدته الثورة في عام 1967.." ففي أوج الهزيمة العربية لم يبق في خطوط القتال غير الفارس الفلسطيني. وذلك يعني أن البعد القومى كان شفافاً لدينا. هذا علاوة على إن كل النضالات الفلسطينية تصب في توكيد النضال العربي. وثمة بعد أخر يؤكد تلازم الوطني والقومي، هو الأحرار العرب الذين ينضوون تحت راية الثورة ويدفعون معنا الغرم قبل الغنم.."[22].

3. قد تكون مقولة عرفات بشأن المشاركة العربية في تضاعيف الحركة الوطنية الفلسطينية عموماً بحاجة إلي الجرح والمناقشة.فهذه المشاركة تبدو محدودة بشدة من حيث الكم والحجم.. اللهم إلا إن كانت المقولة تتعلق بالتآزر الفلسطيني مع الحركة الوطنية اللبنانية في بعض المعارك والمناسبات. وهو ما لم يغفل عنه عرفات الذي دلل على عروبة الثورة بهذا التآزر في أكثر من مناسبة. غير أنه يبقي من اللافت تماماً أن عرفات نادراً ما أشار إلى النضال الفلسطيني وقضيته الوطنية بمعزل عن التوكيد على الدور والعمق العربي لهذا النضال وتلك القضية. وهذا يثير الشكوك في فكرة انعزالية وإقليمية العقيدة النضالية عند الرجل.

كان عرفات بصيغة أخرى شغوفاً بالحديث بصيغة من يحدث بلسان الأمة العربية. وفي معظم رسائله وخطبه نراه يخاطب هذه الأمة جنباً إلي جنب مع شعبه الفلسطيني، ويؤكد على

**رؤية ياسر عرفات للنظامين الإقليمي والدولي...**

وجود مؤامرة تستهدف الأمة، وأن أقدار الشعبي الفلسطيني هي التي ساقته إلي موقع الصدارة في مواجهة هذه المؤامرة "الاستعمارية الصهيونية الإمبريالية" وفي أوقات الاشتباكات المسلحة مع قوي عربية، وهو ما حدث غير مرة في الأردن ولبنان، أو ظهور خلافات فارقه مع قوي أخرى، وهو ما حدث مع دول الطوق العربي حول إسرائيل بخاصة، يكثر عرفات من ترديد مفاهيم المؤامرة والمتآمرين والعمالة والمتعاملين. فبعض التصرفات العربية لا تمثل استثناءاً من هاجس المؤامرة الذي يلح على عرفات. لكنه في كل الأوقات تقريباً كان مشغولاً ومهجوساً بفكرة المؤامرة الخارجية الاستعمارية ضد فلسطين والعرب. ومن أقواله ذات الدلالة في هذا المقام "لابد من نظرة شمولية للصراع.. تبدأ من معاهدة سايكس بيكو المشؤومة لندرك أننا نواجه هذه المؤامرة التي بدأت بتلك المعاهدة وبوعد بلفور.وسوء حظ الشعب الفلسطيني أن الضربة الأولي أصابته.." [23].

وهو يغوص أكثر في التاريخ إلي ما هو أبعد من سايكس بيكو وبلفور عندما يذهب إلي إن "المشروع الاستيطاني منذ نابليون وبالمرستون كان يهدف إلى تمزيق الأمة العربية. والهجوم الاستيطاني الصهيوني هو رأس جسر للإمبريالية العالمية، والشعب الفلسطيني هو القوة الصدامية للأمة مع هذا المشروع .."[24]. ومن أقواله بالخصوص أيضا "إن امتنا العربية مستهدفة بمؤامرة كبيرة ومتشعبة ومستمرة، هدفها تمزيق الأمة وفرض واقع التجزئة والبلقنة عليها.. "[25].

أكثر من ذلك ربطاً بين النضال الفلسطيني والمصير العربي أن عرفات كان ينسب قيام الثورة الفلسطينية المعاصرة إلي الإرادتين الفلسطينية والعربية.. "إن انطلاقه ثورتكم ــ مخاطباً قوي الثورة الفلسطينية ــ كانت إرادة الشعب الفلسطيني وإرادة الأمة العربية..". كما أنه لم يفصل معارك الثورة الفلسطينية عن معارك العرب بالمفهوم التاريخي. وهو وصف معركة بيروت (1982) بأنها "أطول معركة عربية إسرائيلية"[26]. وكان يعتبر أنه "النضال الفلسطيني الدؤوب يُعيد رسم خريطة الشرق الأوسط والمشرق العربي، وذلك نقيض التاريخ الاستعماري الاستيطاني وتحدياً له.."[27]. كان اعتقاده أن ما يصيب الأمة العربية يصيب الشعب الفلسطيني وأن وحدة الموقف العربي باتجاه فلسطين "هو الأرضية الصلبة التي نقف عليها الثورة الفلسطينية.." وهو استخدم فكرته حول طليعته الفلسطينيين وحركتهم النضالية على رأس النضال العربي في ما يشبه خطاب التعبئة والحشد.. قال عرفات متحدثا عن قوات الثورة والقوات الفلسطينية اللبنانية المشتركة عام 1982" .. هؤلاء هم صناع التاريخ الجديد لهذه الأمة العربية المجيدة وبناه ملحمتها المتجددة. أياديهم القوية هي التي تضع الفجر الجديد لهذه الأمة والكرامة للمنطقة. هم الذين يقفون في الخندق الأمامي يزودون عن حياض الوطن والأمة العربية حتى لا يتم التهامها واحدة تلو الأخرى من هؤلاء الصهاينة .."[*].

4. طالما أن للثورة الفلسطينية أو العنصر الفلسطيني هذا المقام والدور في تحدي المؤامرة الخارجية والقائمين عليها، فقد كان طبيعياً أن يري عرفات أن هذا العنصر مستهدف أكثر وأنه لن يكون الخاسر الوحيد أو الكاسب الوحيد في معمعة الصراع.." إذا كان الشعب الفلسطيني وثورته وقضيته يشكل حالياً الهدف المركزي المباشر للحرب الأمريكية الإمبريالية الشعواء، فإنني أقرع جرس الإنذار المبكر أمام أمتنا العربية بأسرها. وأحذر من الأبعاد الخطيرة التي ينطوي عليها التورط الأمريكي المباشر والمعلن في الصراع .. مؤكداً أننا لن نكون وحدنا المتأثرين به ولن نكون وحدنا الخاسرين فيه..[28].

ثم أنه من الطبيعي والحال كذلك أن تكون السياسة الفلسطينية معنية بقوة بتعزيز الصف العربي. يقول عرفات "إذا كان التمزق والتردي المفروضان على منطقتنا العربية يفتحان الأبواب أمام التأثيرات السلبية الخارجية ومواصلة قوي المؤامرة السعي لتحقيق أهدافها المدمرة على صعيد منطقتنا بأسرها، فإن منظمة التحرير عملت ما تستطيع من أجل تحقيق التضامن على مستويات العمل العربي المشترك كافة."[29].

وفي مناسبات كثيرة، كان عرفات يعبر عن ألمه من الصورة العربية المأساوية بحسبها "شجعت الأعداء على المضي بشكل سافر لإشهار عدائهم ليس فقط ضد الشعب الفلسطيني ولكن ضد كل ما هو عربي".. ومن الأمثلة التي تشي بهذا التوقع وساقها عرفات، أن الأوضاع العربية المتردية حفزت الإدارة الأمريكية عام 1986 فقط على ممارسات إرهابية ضد أكثر من موقع.. فهي " ضربت ليبيا واختطفت طائرة مدنية مصرية واضطلعت بما عرف بفضيحة إيران جيت التي وردت بمقتضاها السلاح لتأجيج الحرب مع إيران (أثناء الحرب العراقية الإيرانية)، ودعمت استمرار الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية في لبنان وسوريا وفلسطين، واستمرت في رفض الاعتراف بالحقوق الفلسطينية وارتفعت بإطار التحالف مع إسرائيل وأشركتها في ما يسمي بحرب النجوم .." [30]. ويربط عرفات هذه التصرفات المنفلتة ضد الأمة العربية بأوضاع محددة على الخريطة العربية. فقد جري ذلك كله في العام 1986 (مثلاً) "بعد أن غيبت مصر أثر اتفاقات كامب ديفيد، واشتغل العراق بالحرب مع إيران وأبعدت دول الخليج في غمارها، وأوجدت الخلافات في شمال أفريقيا، واشغل السودان بجنوبه.."[31].

5. وكانت موازين القوة بين العرب عموماً وإسرائيل حاضرة في العقل السياسي لعرفات. كان يخشى من استفراد إسرائيل بالطرف الفلسطيني ويعتبر أن "الأمة العربية لا ينقصها المال والسلاح والرجال والإمكانات ولا التوازنات الاستراتيجية وغير الاستراتيجية .. ينقصها شيء واحد فقط : القرار السياسي. بالقتال. هذا القرار الذي لا تأخذه سوي القوي الواعية المصممة القادرة على التحدي ومواجهة الخطوب .." [32]. وفي مضمار حسابات القوة رأي عرفات السنفط

العربي كأقوى الأسلحة العربية. لكنه لم يستخدم في المعركة كما ينبغي، رغم أنه يمثل القنبلة النووية والهيدروجينية العربية [33].

لم يكن عرفات بالقيادي الحالم تماماً رغم أنه مثل كل الزعماء التحررين حمل خاصة الحلم.. فهو قارب قضيته مشدوداً إلي واقعها وموازين القوة التي تحيط بها. وكان يتطلع إلي كل ميزة عربية على أنها ميزة لفلسطين متأملاً استخدامها في عركته التحريرية. وكما ألمحنا آنفاً فإن التردي العربي وانشغال قوي الأمة بقضايا خلافية وحروب داخلية أو خارجية، فضلاً عن أحجامها عن استخدام سلاح النفط بالشكل الصحيح، يؤدي إلي خسائر فلسطينية وعربية ويجرئ الأعداء على مزيد من الاعتداءات على الحقوق العربية.

يدل على هذا المنظور بلا موارية، تحليل عرفات لسيرورة الحرب العراقية الإيرانية.. فهو ربط ذات حين بين انتهاء تلك الحرب بما اعتبره انتصاراً للعراق وبين تغير خريطة المنطقة وضرورة انصياع إسرائيل لهذه الحقيقية الاستراتيجية الجديدة، متسائلاً هل تستطيع النخبة الحاكمة في إسرائيل تحمل معركة من نوع معركة شرق البصرة؟ . ماذا بشأن الأسلحة الجديدة في المنطقة" (قاصدا الأسلحة الصاروخية العراقية وقتذاك)[34]؟. ولم يكن عرفات معنياً بمطالعة موازين القوة العربية الإسرائيلية فحسب، وإنما كان متنبهاً لما يتفاعل داخل النظام العربي ذاته من علاقات وموازين قوي بين أطرافه، والانعكاسات المحتملة لهذا التفاعل على حركة السياسة الفلسطينية وحدود هذه الحركة.

ومن ذلك أنه راهن مثلاً على تطور الحالة العراقية بعد انتهاء حربها مع إيران بالنسبة لموازين القوي داخل النظام العربي وتداعياتها على التعامل مع العنصر الفلسطيني بشكل لا لبس فيه. فهو ذهب آنذاك إلي أن "نهاية الحرب العراقية الإيرانية على ما انتهت إليه ستؤدي إلى نهاية الاستفراد السوري بالثورة الفلسطينية، لأن النظام السوري استفرد بالثورة وكال لها الضربات بسبب غياب مصر (جراء معاهدة كامب ديفيد والصلح مع إسرائيل)، ثم انشغال العراق والخليج. بل وإن الحرب شلت فعالية الصديق الإيراني. وهو ما اعتقد أنه خريطة عربية جديدة سوف تنشأ بسبب وزن العراق وانتصاره في الحرب.."[35].

ورغم ما يمكن أن يقال بشأن تحول عرفات عن هذه القناعة بأهمية عنصر القوة على مسار الصراع في فلسطين، وأنه ربما يكون قد تخلي عن هذه القناعة بعد أن دعا إلى سلام الشجعان مع إسرائيل، ومضي إلي أن القوة لن تحسم هذا الصراع، برغم ذلك ونحوه، فإن التدقيق في مقاربة عرفات وإدارته للصراع حتى لحظة رحيله وغيابه عن مسرح الحياة، يشي بأشياء أخرى. ربما كان منها أن عرفات أحبط تجاه احتمال حشد القوة العربية في المواجهة، وتجاه تعزيز وحدة التصور العربي ضد الغزوة الصهيونية. وهذا ما دفعه إلي تعديل قناعته وليس التخلي عنها

بالمطلق مخافة وقوع مزيد من الخسائر فلسطينيا. وأحد آيات ذلك أنه غالباً ما كانت تعتريه موجة من الحنين إلي تسخين الصراع مع إسرائيل. وقد يقال في ذلك أنه لم يبتعد عن تحريك الانتفاضة الثانية غداة فشل قمة كامب ديفيد الثانية (يوليو 2000). وأنه إنما أراد تذكير الجميع بأن ذخيرة الفلسطينيين وطاقتهم النضالية لم تنفذ وأنهم ليسوا بوارد الاستسلام.

6. السياسة الفلسطينية رغم شعاراتها حول استقلالية القرار وتركيزها على البعد الوطني في عهد عرفات، سيقت إلي أن تصبح جزءاً من تفاعلات النظام العربي الرسمي بعجزه وبحسره بسلبياته وإيجابياته. وكان مما أخذ عليها افتقادها للظهير الشعبي العربي المؤطر والداعم لها بشكل منظم ومستمر عملياً.

وهنا تتجلى واحدة من أبرز مفارقات هذه السياسة في عهد عرفات، ممثلة في المسافة بين النظرية والتطبيق، بين الشعارات والتطبيقات.. فعرفات أبدا على الصعيد النظري وعياً بالغاً بأهمية الرأي العام العربي وقواه الشعبية كظهير للقضية الفلسطينية، بحسبهاتهم كل الشعوب العربية وتمس مصالح الأمة ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. يقول عرفات " إن العمل الشعبي العربي المنطلق على أرضية الالتزام القومي بالقضية المركزية، قضية فلسطين، وضرورة حشد الطاقات الشعبية العربية كافة في المعركة المصيرية في مواجهة العدوان الصهيوني وما يجسده من أخطار ضد امتنا العربية، وهذا العمل الشعبي يشكل عمقاً رئيسياً للكفاح الوطني الذي يخوضه شعبنا في كل الساحات. من هنا تأتي أوجه النداء إلي إحياء العمل الشعبي العربي في أطره الوحدوية وقواه السياسية وتجمعاته الجماهيرية، وإعادة إحياء الجبهة العربية المشاركة في الثورة وعبر أية صيغة تتلاءم مع المستجدات السياسية الراهنة.." [36].

عرفات هنا يدعو إلي إحياء التضامن الشعبي مع النضال الفلسطيني، بما يفيد أن هذا التضامن تعرض لنكسة ما وأن أطره تحتاج إلي الترميم. وهذا في الواقع يتعارض وقوله في المناسبة ذاتها [37]، بأن "أهم إنجازات الثورة الفلسطينية هو احتضان جماهير الأمة العربية لها. وهي بذلك حققت الشعار الثوري الذي يقول بأن التحرير هو طريق الوحدة .." [37]. لكنه في كل الأحوال كان يري أن التلاحم بين القوي اللبنانية الوطنية التقدمية العروبية وبين قوي الثورة الفلسطينية، وتقاسم السراء والضراء بينهما، هو مظهر للمرابطة في الخنادق الأمامية للأمة العربية كلها. وهي في المواجهة المتقدمة للجماهير العربية دفاعاً عن عزتها وكرامتها، عن وجودها وحضارتها ومستقبلها. [38].

لعل عرفات كان يبالغ في تصوره أن الثورة الفلسطينية حققت شعارها "التحرير طريق الوحدة". إذ لم يتحقق التحرير ولا الوحدة بالشكل الذي كانت تبغيه الثورة الفلسطينية أو الذي كان يهجس به هو ذاته. لكن تقديره بشأن حدب الجماهير العربية على فلسطين والغيرة على مصيرها

وتحريرها كان صحيحاً إلي حد كبير. وليس هنا موضوع التفاصيل حول هذه الناحية. غير أن المتابع يستطيع أن يستشعر إخلاص الجماهير العربية وعطفها على قضية فلسطين من النظر في المشاعر التي عادة ما فاض بها أبناء الأمة تجاه المحنة الفلسطينية، وصولاً إلى الخروج في الشوارع والتظاهر العارم إبان مناسبات فلسطينية بعينها، وحملات الجود والبذل الشعبي لفلسطين التي دوماً تستجيب لها الجماهير العربية حين تدعي إلي ذلك وتتوفر لها فرص التعبير والحركة.

7. مبلغ العلم أن ياسر عرفات هو الذي نحت عبارة "الزمن العربي الرديء" دلالة على ما اعتور النظام العربي من نواقص وعمليات تشاحن وتنازع داخلي وخروج على ثوابت هذا النظام والتزاماته تجاه قضية فلسطين بشكل خاص. وفي إطار معالجاته لهذه الأجواء العربية المتوترة، نراه مع السياسة الفلسطينية وقد أضحي في قلب التفاعلات العربية، سواء بجهوده للوساطة ورأب الصدوع وتسكين الأزمات الساخنة، أو بميوله إلي هذا الطرف أو ذاك وفقاً لتكييفاته للمصلحة الفلسطينية والعربية والتي ربما لم تكن حالفها الصواب في بعض الحالات.

لكن عرفات غالباً ما كان على صلة بما يدور في رحاب النظام العربي من تفاعلات ظاهرة وباطنة .. وكان مدركاً لموازين القوي داخل هذه الرحاب، التي تشغل فيها مصر والعراق وسوريا والعربية السعودية دوراً قيادياً لاسيما في مشرق العالم العربي.. وقد أشرنا في موضع سابق أن صيانة مبدأ عدم التدخل الفلسطيني في الشؤون العربية مقابل عدم تدخل الدول العربية في الشؤون الفلسطينية كانت من الصعوبة الشديدة بمكان ولنا أن نضيف هنا أن الأجواء العربية العاصفة والمتقلبة تركت أثارها على الشأن الفلسطيني الذي قاده عرفات لزهاء أربعة عقود. وفي مناسبات معينة كانت سياسات بعض الدول العربية تجاه إدارة الصراع مع إسرائيل حرباً أو سلماً أو ما بين حالة اللاحرب واللاسلم شديدة التأثير على مسار النضال الفلسطيني. الأمر الذي نجُمت عنه احتكاكات قوية بين هذه الدول وبين السياسة الفلسطينية. حدث ذلك في تواريخ مختلفة مع الأردن ولبنان ومصر وسوريا .. أي تقريباً مع كل دول الطوق المحيطة بإسرائيل والمتغلغلة أكثر في الصراع معها وفي الشأن الفلسطيني. وفي هذه النماذج جميعها كان عرفات حاضراً بقوة وكانت له رؤية ورأي.

وما دمنا بصدد عرفات والنظم العربي بعامة، فقد يجدر الاستطراد إلي رؤية الزعيم الفلسطيني للأزمة التي تخلفت عن إبرام الصلح المصري الإسرائيلي داخل هذا النظام .. ثم لرؤيته في معالجة الأزمة التي نجمت عن غزو العراق للكويت عام 1990 على سبيل النمذجة.

بعد خروج مصر من ساحة الصراع المسلح مع إسرائيل استشعر عرفات الخسارة الكبيرة التي لحقت بالنظام العربي وموازين القوي العربية الإسرائيلية. ذلك لما تمثله مصر بنظره تاريخاً ووجوداً بشرياً وحضارة وقوة وسياسة .. وكان يعتقد أن هذا الخروج مؤقت وأن الشعب المصري

سيعود ليشارك أمته العربية في صنع تاريخها ومستقبلها [39]. وهو تصور أن ما عرف بجبهته الصمود والتصدي العربية التي برزت غداة الصلح المصري الإسرائيلي. يمكنها أن تساهم في تعويض هذه الخسارة وإحداث نوع من التوازن الاستراتيجي في المواجهة المستمرة مع إسرائيل[40]. لكنه أدراك لاحقاً وهن هذه الجبهة، وراح ينسج علاقات داخل النظام العربي تجمع بنظر البعض بين متناقضات[41]. فهو مثلاً نسج تحالفات على الساحة اللبنانية تتعارض والسياسة السورية هناك. وفي الوقت ذاته سعي للتقارب مع سوريا، بحسبها قاعدة خلفية للثورة الفلسطينية، وأقام علاقات قوية مع بغداد حاول إلا يصل فيها إلى استفزاز سوريا التي تتزاحم بنظر الكثيرين مع العراق على قيادة النظام العربي بديلاً من مصر. لكنه في الوقت ذاته أيضا راقب الوضع الداخلي في مصر، وأبقي على خيوط اتصال معها موقنا بمرور الوقت أن آية علاقة أخرى لا تعوض علاقته مع مصر .وغداة خروجه من بيروت (1982) راودته فكرة التعامل بقوة مع القاهرة باعتبار أنها تخلت عن ورقة كامب ديفيد الفلسطينية، وأوقفت مباحثات الحكم الذاتي وأن كامب ديفيد ليست قراراً يشطب بسهولة[42].

وبالفعل مضي عرفات إلي تطبيق رؤيته بضرورة عودة مصر إلي جسم الأمة العربية وفتح الطريق بشكل طبيعي معها. وذهب إلى أن "عودة مصر إلى وضعها الطبيعي في الجسم العربي ليست مهمة فلسطينية ومصرية فقط وإنما هي مهمة قومية عربية تقتضي توفير الدعم السياسي والاقتصادي والمعنوي لمصر حتى تحرر نفسها من القيود التي فرضت عليها.." [43]. وأغلب الظن أن تبلور اتجاه التسوية السياسية للقضية الفلسطينية في وجدان عرفات، كان له دور في هذا التوجه.. فضلاً عن إطلاعه على حجم الخسائر التي انحدر إليها النظام العربي نتيجة انغماس العراق في حرب ضروس مع إيران، طالت أكثر مما يجب وأثرت في ركابها على مجمل الحياة العربية ومركبات القوة في المشرق العربي ومنطقة الخليج وليس من وليس من المستبعد أن تكون خطوته تلك تأثرت بأبعاد شخصية الذاتية إذ كان يعتز بأنه "مصري الهوى".

ولعل إحدى أكثر المحن التي تعرض لها عرفات في حياته السياسية مع النظام العربي موقف القطيعة الذي اتخذته منه دول الخليج رداً على ما اعتبرته انحيازاً للعراق عند غزوة للكويت عام 1990. وقتذاك وجدنا عرفات يطرح وجهة نظر تحاور حول أن منظوره للأزمة قد فهم خطئاً وفسر بشكل مغرض.وذلك أن عينه كانت على الأمة العربية كلها أن تقع فريسة الغزو الأمريكي بزعم تحرير الكويت وأنه إنما سعي إلى الحل العربي للأزمة .. تحت المظلة الدولية، المرتبط بحل شامل لجميع قضايا المنطقة وكان من رأيه "أن المقدسات العربية والإسلامية أغلي من النفط وأن أولي القبلتين وثالث الحرمين الشريفين أهم من الدولارات ..". وذهب إلي أن "القوات التي ضغطت الولايات المتحدة في كل اتجاه لجمعها، إنما جاءت لتصفية القوة العراقية والبقاء طويلاً على

الأرض وحقول النفط. والعصر الأمريكي الذي تدشنه الولايات المتحدة بهذه السياسة ليس قدراً محتوماً على الأمة العربية بل يمكن مقاومته .." [44]. وللحقيقة فإن هذا التوضيح لم يقنع الكويت وبقية المجموعة العربية الخليجية، التي أشاحت عن عرفات طويلاً. أما هو فلم يتوقف بعد تلك الأزمة عند المناداة بتجاوزها تداعياتها.." لقد أدت الحرب على العراق (1991) إلي نتائج مأساوية إذ جرى تدمير بلدين عربيين، العراق والكويت وأدت إلي تعميق الشروخ في الجسد العربي وإشاعة البغضاء في النفوس. وإنني أدعو إلي تجاوز نتائج الحرب وفتح صفحة جديدة في العلاقات العربية باسم القدس"[45]. وقد أردف تلك الدعوة بنداء إلي الدول العربية المغاربية بأن تكون الرافعة لإعادة توحيد الصفوف العربية، حتى لا يكون النظام الدولي الجديد على حساب المصالح العربية.. ثم أنه أبدا تعجبه من استمرار تأثير الأزمة لفترة ممتدة، مشيراً إلي أنه كانت هناك حروبا بين ألمانيا وفرنسا وهما الآن بصدد إقامة وحدة أوروبية [46].

8. نفي عرفات باستمرار احتمال تحقيق تسوية عربية إسرائيلية تقفز كلياً عن العنصر الفلسطيني في الصراع. كان ضمن ثوابت منظورة أنه "لا حل ولا استقرار ولا أمن بالقفز على حقوق شعبنا الثابتة غير القابلة للتصرف بما فيها حقنا في العودة وتقرير المصير وإقامة الدولة المستقلة فوق ترابنا الوطني. وأن الخيار الفلسطيني هو وحدة خيار السلام العادل والدائم في الشرق الأوسط.." [47]. وبالقدر ذاته من اليقين والثبات على الصعيد النظري نفي عرفات احتمال حصول العرب علي تسوية عادلة متفرقين وبغير إرادة موحدة معززة بالقوة " إن العرب الباحثين عن السلام لن يجدوه إلا عبر القوة والإرادة العربية الواحدة الموحدة. فالسلام العادل هو سلام الأقوياء وليس الضعفاء والركع.. سلام الضعفاء هو الاستسلام" [48].

غير أن رؤية عرفات لشروط التسوية العربية الإسرائيلية لم تتحقق ومن المؤكد أن قناعته بخوض التسوية السلمية تأثرت جوهرياً بانهيار التضامن العربي بشكل متواتر لاسيما بعد حرب أكتوبر 1973. وقد بلغ هذا الانهيار ذروته بانشطار النظام العربي أثر الغزو العراقي للكويت وهزيمة العرب جميعهم أمام تحدي حل أزمة الغزو عربياً، وحضور الولايات المتحدة بثقلها العسكري والسياسي إلي الرحاب العربية براً وبحراً وجواً. ثم أن هذه الرؤية تأثرت أيضاً بالضغوط العربية للانغماس الفلسطيني أكثر في نهج التسوية في حدود تحرير الأرض المحتلة عام 1967ـ وهو ما حدث عبر المشاركة في مؤتمر مدريد1991 [49]، وتم التأكيد عليه عربياً باستمرار منذ ذلك الحين كهدف استراتيجي. ولم يكن عرفات راضياً بعد خوض غمار التفاوض من أجل التسوية عن مستوي التنسيق العربي وقبل الانفراد بالتفاوض السري مع الجانب الإسرائيلي الذي انتج اتفاق أوسلو، كان يردد دوماً "أن التنسيق غير قائم ولو في حده الأدنى..". ومن المعروف أن شكوى عرفات من انعدام التنسيق العربي الذي يوهن المفاوضين العرب ومنهم

الفلسطينيين، انقلب بعد إبرام اتفاق أوسلو 1993، إلي شكوى عربية من عرفا ذاته، بحسبه ذهب إلي أبعد مما هو متصور في تجربة التسوية بالتفاوض السرى بمعزل عن الشركاء العرب.

## ثانياً: عرفات والنظام الدولي:

أمر طبيعي أن يضع عرفات نفسه وقضيته وشعبه وثورته في معسكر قوي السلام والحرية والتقدم والعدالة. وكان طبيعياً أيضاً أن ينحاز إلي القطب الدولي الذي يساند الحقوق الفلسطينية بكل جهد ممكن وفي حدود ما تسمح به الحركة الدولية، ضد القطب الذي عارض تاريخياً هذه الحقوق وأسهم في ضياعها والتآمر علي على فلسطين وأمتها وسعي إلي استحلاب خيراتها مراعاة لمصالحه فقط. وكان المعسكر الحليف على ما هو معلوم هو المعسكر الاشتراكي بزعامة الاتحاد السوفيتي والثاني هو المعسكر الرأسمالي بزعامة الولايات المتحدة. وعلى مقربة من المعسكر الأول الأكثر حساسية للحقوق الفلسطينية، كانت هناك قوي العالم الثالث التي اشتملت على طيف واسع من المنظومة الأسيوأفريقية ودول أمريكا اللاتينية، وبخاصة الصين والهند.

قدر عرفات في هذا المشهد الذي استمر لما يزيد عن ربع قرن بعد بروزه على رأس السياسة وحركة التحرر الفلسطينية، أن الثورة الفلسطينية "تشكل مركزاً رئيسياً من مراكز الحرية والتقدم فى العالم المعاصر وركناً مكيناً من أركان التحرر والتقدم .. وطرفاً أصيلاً في الخندق الأمامي لجبهة الصراع بين الأمة العربية وبين العدو الإمبريالي الصهيوني الاستعماري البغيض"[51]. ويعرف عرفات مصالح هذا التحالف العدواني في المنطقة العربية على غرار التعريفات التقليدية المشبوهة في أدبيات الاستعمار والتحرير وهى عنده استمرار تدفق النفط، والسيطرة على الأسواق العربية واجهة استهلاكية للمنتجات الرأسمالية الدولية، واستغلال العمال العرب وجهدهم بأبخس الأثمان، وفرض الحلول الاستسلامية على العرب مع إسرائيل لتظل حامية لهذه المصالح جميعاً [52].

داخل هذا الفرز كان عرفات قد رأي إسرائيل مطولاً كمشروع استعماري استيطاني ينتمي للغرب ضد الأمة العربية. وأن الولايات المتحدة هي المسؤولة عن دعم هذا المشروع وحمايته بالمال والسلاح والفيتو. وأن واشنطن تحدد سياستها إزاء أي طرف بناء على الموقف من إسرائيل[53] وذهب إلي أن الذي يريد أن يقارع الإمبريالية العالمية، ينبغي عليه مقارعتها في فلسطين أولاً وفي المنطقة العربية[54] ذلك في نظره لأن "إسرائيل قوة طليعية للاستعمار في فلسطين وغير فلسطين" [55]. وهو كثيراً ما ربط بين الرغبة الإسرائيلية الاستعمارية في إزاحة الثورة الفلسطينية "الرقم الفلسطيني الصعب" وبين تداعيات هذه الرغبة عربياً ودولياً. فقضية الإنسان الفلسطيني عنده هي قضية العربي وقضية الإنسان والإنسانية في عالمنا المعاصر" [56]. وبناء على هذا المعني سنجد أن عرفات يتفهم موقع فلسطين وحركتها التحررية في غمرة الصدام

**رؤية ياسر عرفات للنظامين الإقليمي والدولي...**

بين قوي الاستعمار والتحرر على الصعيد العالمي.. ومن أقواله في ذلك "إننا بعيد الانتصارات التي حققتها الثورات في فيتنام ولاوس وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، تقع علينا مسؤوليات جسام. مسؤوليات تتعدى حدودنا الإقليمية الضيقة، إلي هذا العالم من الأصدقاء والحلفاء، مستندين إلي جماهير أمتنا العربية، لنمد معهم جسور الالتحام والصداقة والتضامن والمحبة لننير لهذه الإنسانية المعذبة طريقها الثوري للخلاص من الظلم والعبودية والاضطهاد والاستغلال" [57]. وواضح ما ينطوي عليه هذا التصور من خاصة الحكم في قائد الثورة. الحلم الذي يتعدى فلسطين والعالم العربي إلي دور عالمي لتحرير الإنسان والإنسانية.

بناء على ذلك رحب عرفات بالثورة الإيرانية حال قيامها 1979 باعتبارها قوة إسلامية تقدمية ستشكل بالالتحام مع الأمة العربية، قوة فعالة في خضم المواجهات الحتمية والمصيرية ضد الإمبريالية والصهيونية والاستعمار" [58].

غير أن عرفات الحالم الثوري لم يتخل عن عرفات السياسي العملي البراجماتي وهذا ما جعله يعدل في خطابه ورؤاه وفقاً للتطورات من حوله، إقليمياً ودولياً. وقد انعكس هذا الأمر حتى على لغته تجاه إسرائيل فهو بعد إرهاصات دخوله عملية التسوية السياسية والاستجابة لشروط هذه العملية، راح يغير من لهجته ومفرداته تجاهها. فصار يكثر الحديث عن أمنها وأمن ومواطنيها وشعبها بالتوازي والتوازن مع تعاطيه مع أمن الفلسطينيين. يقول عرفات في فبراير 1990 "الضمان الحقيقي للإسرائيليين يكمن في الأقدام الحكيم على تحقيق السلام مع الشعب الفلسطيني على أساس إنهاء الاحتلال للأراضي العربية والفلسطينية والمشاركة في الاعتراف بمبدأ الدولتين وفقاً للشرعية الدولية. وفي النهاية فإن المخاوف جميعها لدي الطرفين لن تقضي عليها غير الضمانات الدولية لهما وفي نطاق المسؤولية الدولية" [59].

وفي وقت لاحق، غداة إبرام اتفاق أوسلو، لم يعد عرفات يشير إلى إسرائيل كعدو يجب استئصاله ككيان عداني، وإنما كجار جري إنهاء حالة الحرب معه عبر وثائق ينبغي الالتزام بها.." وقعنا وثيقة الاعتراف المتبادل مع حكومة إسرائيل. وهو ما أنهي حالة الحرب الدائرة بيننا منذ نصف قرن. ومع إنهاء هذه الحالة وأعمال العنف كان يجب إلغاء مواد الميثاق الوطني (الفلسطيني) التي تتعارض ومسيرة السلام.." [60]. والواقع أن تحولات رؤى عرفات ومواقفه تجاه الفواعل الإقليميين والدوليين تعد أحد مفاتيح التعرف على هذه الرؤى.. وبنظره أكثر عمقاً قد يكون من الصحيح أن عرفات تصرف أحياناً على صعيد المواقف العملية بما لا يتسق وقناعاته الوجدانية البعيدة الغور. بمعني أن السياسي البراجماتي فيه كان يستدعي منه إبداء الخطاب الحذر تجاه ما يدور من حوله، ومن هنا وصفه البعض بالمراوغ والمناور الكبير. فلنتأمل بعض التفصيلات بهذا الخصوص.

1. أشرنا في غير موضع أن عرفات كان قريباً من القناعة بوجود مؤامرة استعمارية صهيونية تتأبط شراً بفلسطين وعالمها العربي. ولنا أن نلاحظ كيف أن الولايات المتحدة شكلت لديه داخل هذا الاعتقاد مركز الثقل والمحرك الأكبر للتآمر. وعلى مدار مرحلته القيادية إبان الحرب الباردة، لم يتردد عرفات في الإشارة إلى أن "الولايات المتحدة هي مركز العدوان ضد الشعب الفلسطيني وثورته .. هي محركة هذا العدوان وتوزيع الأدوار فيه. من أجل فرض الاستسلام على الشعب الفلسطيني وأمته العربية. وهي متورطة في الصراع ضد الشعب الفلسطيني والأمة العربية على غرار تورطها في فيتنام" [61]. ومن إشاراته الواضحة بالخصوص "أننا نخوض حرباً ضروساً أمام أشرس التحالفات الاستعمارية في العالم، بما يمتلكه هذا التحالف الصهيوني الاستعماري الإمبريالي برئاسة الولايات المتحدة من أحدث وأخطر وسائل القمع والإرهاب والإبادة[62]. ومنها أيضا "نحن لا نواجه إسرائيل فقط، نحن نواجه الإدارة الأمريكية التي يتسوهم شعبها بأن مصالحه تتعارض مع الدولة الفلسطينية المستقلة .." [63]. وربما كانت ذروة التعبير عن الغضب من انحياز القطب الأمريكي الإسرائيلي ما ذكره عرفات لغير مرة حول السياسة الأمريكية من الغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982. فهذا الغزو بنظره "خططت له الإدارة الأمريكية ومدته بأسباب القوة وأدوات الجريمة وغطته بكل الأدوات اللازمة .. هذه الحملة الإجرامية ضد الشعبين الفلسطيني واللبناني كانت مدفوعة الأجر بالكامل من هذه الإدارة للمرتزقة المجرمين في الجيش الإسرائيلي لتسخير المنطقة للنفوذ الأمريكي وسيطرته" [64].

إلي ذلك، لاحظ عرفات بكل غضب وألم المعايير المزدوجة للسياسة الأمريكية بين العرب والفلسطينيين من جهة وإسرائيل من جهة أخرى. وهو اشتكي من هذا النفاق الدولي الصارخ علي مدار حياته القيادية كلها تقريباً. ومن ذلك على سبيل التذكرة والمثل، أنه عند غزو العراق للكويت عام 1990 وما لحقه من استنفار أمريكي على كل المستويات ذكر عرفات في حين كانت القرارات ضد العراق وبشأن الخليج تتخذ بسرعة قياسية، فإن قراراً يتعلق بحماية شعبنا من المذابح التي لا يتوقف الصهيونيون عن ارتكابها يومياً احتاج إلي 48 يوماً لكي يخرج منقوصاً بسبب الضغوط الأمريكية والمعيار المزدوج الذي تتعامل به أمريكا بالنسبة للشرعية الدولية وقرارات الأمم المتحدة" [65].

2. وقر في ذهن عرفات أن التغول الأمريكي تجاه المنطقة العربية يعتمد على التابع الإسرائيلي بشكل رئيسي بعد دعمه وتهيئته للدور العدواني.. لكنه في الوقت ذاته كان يلحظ تواطؤ بعض الأطراف العربية التي "تسير في خط يعمق العزلة ويبث الفرقة في الصفوف العربية، ويشعل مساحات واسعة من عالمنا العربي بنار الحرب والاستنزاف إقليميا وطائفياً واختلاق قضايا ساخنة لصرف الأنظار والجهود عن القضية القومية الكبرى، قضية فلسطين..". وقد دلل عرفات

على ذلك مراراً بما جري في مناسبات وتواريخ على أرض لبنان بشأن التقسيم الطائفي وإخراج مصر من حلبة الصراع والعمل على استمرار الحرب العراقية الإيرانية (إبان الفترة 1980-1988).. وكان يري أن ذلك كله "مرتبط بمسألة الصراع الصهيوني العربي التي تشكل قضية فلسطين جوهرة؛ ففي هذا المناخ جري الغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982 وإخراج قوات الثورة الفلسطينية من لبنان وتلقي الإدارة الأمريكية بشباكها على هيئة مشاريع وأفكار ومبادرات تحمل عناوين السلام. وهي في جوهرها تكريس لنتائج العدوان.." [66].

3. رغم أن الانتفاضة الفلسطينية الأولي أحدثت تأثيرات في الموقف الأمريكي، مثل فتح النقاش حول ما إن كانت إسرائيل قد فشلت في السيطرة على المناطق الفلسطينية المحتلة عام 1967، وأنها يجب أن تبادر إلي عمل سياسي يرضي الفلسطينيين بشكل ما، رغم ذلك، فقد أصرت واشنطن على أنها لن تمكن منظمة التحرير وعرفات من حصاد سياسي، ما لم تستجب المنظمة للاعتراف بالقرار 242 (والاعتراف بإسرائيل ونبذ الإرهاب) وهنا نلاحظ أن عرفات الذي كان يستطلع تحول الثقل الدولي الصالح·الولايات المتحدة منذ منتصف ثمانينات القرن الماضي، راح يميل إلي الاستجابة لهذه الشروط. بل وهناك من يري أن اتجاهه لإعلان الدولة عام 1988 يندرج في سياق الاعتراف بالقرار 242 كسائر الدول العربية [67]. وفي كل الأحوال لم يكن عرفات ليجهل مكانة الولايات المتحدة الدولية وتأثيرها الإقليمي ودورها في تفاعلات القضية الفلسطينية حرباً أو سلماً. ولذا نجده يحرص على التواصل والحوار معها يوم سمحت واشنطن بذلك.

لقد بدأ هذا الحوار فور استجابة عرفات للشروط الأمريكية عام 1988. غير أن اتصال عرفات بواشنطن كان أسبق من تلك المناسبة. وقد أشار عرفات نفسه إلي إن الرئيس جيمي كارتر (1977 -1981) اتصل وإياه بواسطة مبعوثين رسميين أثناء أزمة الرهائن في طهران. وأن هنري كيسنجر وزير الخارجية الأمريكية الأسبق شكره رسمياً على مساعدته في الإفراج عن آلاف الأمريكيين في بيروت عام 1976[68]. ومع أن عرفات وصف الحوار مع واشنطن (1988 - 1990) بأنه كان حوار طرشان وأنه لا يرقي سوي إلي مرتبة الاتصالات على مستوي سفيرين في تونس. إلا إنه رفض فكرة القطيعة مع واشنطن بعد ذلك، وظل متمسكا بهذه الاتصالات، وذلك على اعتبار إنه رجل يعمل بالسياسة وليس رومانسيا ويعرف ـ بقوله ـ أهمية الحوار مع دولة مثل الولايات المتحدة [69].

4. على عكس مقاربته للقطب الرأسمالي وعلى رأسه الولايات المتحدة ، التي اتسمت مطولاً بالريبة والشك والحذر من مؤامرات تحاك ضد فلسطين والعرب، فقد تعرض عرفات للمعسكر الاشتراكي وزعيمة الاتحاد السوفيتي قبل أفولهما بلغة ودودة ومنظور دافئ حميم. كان ذلك أمراً

طبيعياً ومتسقاً مع السياسات التي انتهجها المعسكران إبان الحرب الباردة تجاه القضية الفلسطينية والعالم العربي.

وقد ثبت بالنظرة الشاملة العامة لمعالجات عرفات الفكرية والسياسية المتعلقة بالنظام الدولي أن الاتحاد السوفيتي ومعسكره لم يشغلا المساحة ذاتها التي نالها المعسكر الرأسمالي والولايات المتحدة في هذه المعالجات. ومرد ذلك في تقديرنا أن الزعيم الفلسطيني كان مطمئناً إلي السياسات المواقف السوفيتية، واثقاً في سلوك موسكو ونصرتها وحلفائها لقضيته الوطنية منذ بداية علاقتهم به وبمنظمة التحرير.

ومن المتاح بهذا الخصوص، نستيقن أن عرفات كان يتحدث عن الدور السوفيتي دوماً بشكل إيجابي ولغة مشرقة. فالاتحاد السوفيتي هو عنده صديق وحليف دولي كبير. وحتى في اللحظات الأخيرة لهذا القطب ظل عرفات ينوه به وبعطائه لفلسطين. يقول عرفات عام 1986 "أسجل باعتزاز الموقف المبدئي للاتحاد السوفيتي الصديق، المتجسد في الدعم الكبير والمؤثر لحقوق شعبنا الوطنية ولمنظمة التحرير. إن الموقف السوفيتي بالنسبة لنا تجسيداً سياسياً هاماً ينسجم مع عمق العلاقات الفلسطينية السوفيتية [70]. وعندما كان هذا الحليف في نزعة الأخير قبل التشظي، كان عرفات يري أن موسكو الروسية سيظل لها دورا فاعلاً في السياسة الدولية والشؤون المتعلقة بالشرق الأوسط وفلسطين. فالمنطقة العربية تقع على تخومها، والانشغال بالمشاكل الداخلية لن يخرجها من دائرة الدول الكبرى.

وكان عرفات يحاذر من إغضاب موسكو حتى بعد أن سمحت بهجرة اليهود السوفيت إلي إسرائيل وأعادت علاقاتها الدبلوماسية بها. وإن كانت هذه المواقف أثارت انتقاده وحفيظته. وهو اقتنع بالأسباب التي أدت إلى هذه التحولات في أواخر العهد السوفيتي، وفي مقدمتها الأزمات الاقتصادية الخانقة التي تعرض لها الاتحاد السوفيتي وتسائل عما إذا كانت الدول العربية بوسعها تقديم الدعم لروسيا السوفيتية ثم الاتحادية مع بقية دول آسيا الوسطي قبل أن يتقدم غير العرب ويملأ الفراغ[71].

5. في مطالعته للمشهد الدولي كثيراً ما أظهر عرفات ميلاً إلى التمييز بين السياسات والمواقف الأوروبية العربية وبين السياسات والمواقف الأمريكية داخل المعسكر الغربي. ومع أنه أشار غير مرة إلي التحدي الذي مثله الغرب للعرب وخطيئته ومؤامراته التاريخية بحق فلسطين ومطامعه الاستعمارية فيها منذ حملات الفرنجة، إلا أنه حاول استثارة الشق الأوروبي الغربي لإعادة النظر في سياساته الفلسطينية.. تجلي ذلك في رفضه للعمليات الخارجية العنيفة في أوروبا وفي حرصه على المساهمة الإيجابية الفلسطينية في الحوار العربي الأوروبي بعد حرب أكتوبر 1973. ثم في الحوارات الفلسطينية مع القوي التقدمية الأوروبية، بما في ذلك بعض القوي

والأوساط اليهودية التي أنس فيها ميلاً لإقرار العدل في فلسطين [72]. وداخل الحوزة الأوربية ميز عرفات مواقف بعض الدول التي شجعت الاقتراب من الحقوق الفلسطينية أكثر مقارنة بغيرها، ومنها اليونان وفرنسا وإيطاليا وأسبانيا.

وقد طالب عرفات أوروبا بتكثيف جهودها تجاه التسوية في فلسطين. وغالباً ما رحب بمبادراتها الدبلوماسية بعامة والاقتصادية بخاصة لمساعدة الجانب الفلسطيني، وذلك على عكس السياسة الإسرائيلية التي رفضت المداخلة الأوروبية الجماعية على خط التسوية إذا لم تتسق مع الرؤية الإسرائيلية. ورغم أن اتفاق أوسلو جري برعاية قوي أوروبية وحمل اسم عاصمة أوروبية، إلا أنه لم يمثل في مضمونة انحرافاً عن المنهج الإسرائيلي. فقد جري تحويل الاتفاق وتوابعه إلى الرعاية الأمريكية فضلاً عن إنه لم يتعارض في جوهره والشروط التي فرضتها إسرائيل على الدور الأوروبي.

والحال أن عرفات كان يتفهم الصلات الأوروبية الأمريكية التي تفرض حدوداً وقيوداً على حركة الأوروبيين تجاه فلسطين ومختلف القضايا الدولية زمن الحرب الباردة. ولذا فإنه استبشر بأن تكون نهاية ذلك الزمن نذيراً بإطلاق يد الأوروبيين واتخاذ جانب المبادرة في مواقفهم الدولية. ومن أقواله في ذلك التي تعود إلي عام 1990 "سوف يشهد عام 1993 قيام أوروبا الكبرى، وبخاصة بعد انتهاء تهديد الصواريخ لأوروبا.. وهي خرجت من الابتزاز الأمريكي وذريعة أن أمريكا هي التي تحميها.." [73]. لكن توالي الأحداث سوف يخيب هذا التقدير وتقديرات أخرى لعرفات بشأن تأثير انتهاء الحرب الباردة على الموقف الدولي من القضية الفلسطينية.

6. عبر عرفات عن ارتياحه لأجواء الوفاق التي تعمقت بين القطبين الدوليين بفعل مبادرات موسكو منذ صعود ميخائيل جورباتشوف للسلطة منتصف ثمانينيات القرن الماضي [74]. لقد تصور أن هذه الأجواء وما واكبها من جدل حول بعض القيم النبيلة كالديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان .. الخ، سوف تنعكس على النضال الفلسطيني إيجابياً لأنها ذات القيم التي يسعى إليها الفلسطينيون [75]. ولما أنهار الاتحاد السوفيتي وبدا أن العالم يتجه إلى نظام دولي مغاير لما كان عليه إبان الحرب الباردة ، دعا عرفات إلى تناول هذا التحول المنتظر بالجدية الفلسطينية والعربية اللازمة لئلا يكون على حساب مكانة العرب وقضاياهم. وفي سبتمبر 1991 أوضح رؤيته بهذا الخصوص بأن "حركة الأحداث على الصعيد الدولي تجعلنا ندرك أن العالم إن لم يكن تبني بالفعل نظاماً دولياً جديداً فإنه يتجه إلى ذلك على أسس جديدة، أخلاقية وسياسية ومادية واقتصادية. وهنا على المجتمع الدولي أن يتنبه بجدية إلى القضية الفلسطينية في هذا الخضم من التطورات .. وأن يعمل ما في استطاعته لتفادي الوقوع مرة أخرى في ظلم الفلسطينيين ومصادرة حقوقهم.. لقد فقد الشعب الفلسطيني. وطنه جراء مظالم النظام الدولي القديم .. ولا يصح أن يحرم من حقوقه في

ظل النظام الجديد. هناك مسؤولية أخلاقية وسياسية وإنسانية تقع على عاتق المجتمع الدولي والضمير الإنساني في رفع هذا الظلم وإحقاق الحق. وأنه لا يمكن أن يبني سلام على اضطهاد الشعوب ولا يمكن أن يستتب السلام في الشرق الأوسط إلا بتحقيق الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني، بما فيها حقه في العودة وتقرير المصير ودولته المستقلة وعاصمتها القدس.." [76].

على أن عرفات أدرك أن النظام الدولي الجديد لن ينصف الشعب الفلسطيني عبر الاستجداء والمناشدة. ومن هنا كانت دعوته إلي الأمة العربية كي تتنبه إلى مواطئ أقدامها في غمرة هذا التحول العالمي. ومن أقواله بهذا ا الصدد أنه "لابد من موقف عربي موحد كي تشارك الأمة العربية في صياغة النظام العالمي الجديد الذي يقوم على أنقاض الحرب الباردة. نريد للأمة أن تكون شريكاً بقدر يتيح لها الدفاع عن مصالحها وثرواتها ومستقبلها.. بدلاً من أن يبني هذا النظام على حسابنا ولنهب ثرواتنا وعلى حساب مستقبلنا وحرياتنا وأجيالنا القادمة.. " [77].

7. يمكن القول إن دعوة عرفات المذكورة لاقت مصير سابقاتها. فلا التضامن العربي تحقق ولا طرح العرب أنفسهم بقوة في تضاعيف التحولات الدولية، بل ربما كان العكس هو الصحيح. إذ تفاقمت الخلافات داخل النظام العربي، وتعرض العراق الذي استبشر عرفات بثقله الإقليمي غداة انتهاء الحرب العراقية الإيرانية للحصار الممتد، بعد تحطيم قوته في معمعة ما سمي بتحرير الكويت (مارس 1991)[78]. وفي وقت لاحق جري احتلال العراق بالكامل (مارس 2003) من جانب تحالف أنجلو أمريكي صهيوني.. والذي صح من توقعات عرفات هو حديثه عام 1992 عن مفارقة تاريخية كبيرة هي "إن الحرب الباردة كانت الحاضنة الدولية الأساسية للكيان الإسرائيلي في وطننا فلسطين ليؤدي وظيفة في هذه الحرب. ومن العجيب أن يظل هذا الدور قائما بعد الحرب"[79].

وبمضي عرفات في توصيفه للوضع الدولي، غير المواتي لرياح القضية الفلسطينية مجدداً، وتعلو نبرته مرارة واضحة حين يتعرض لدور القطب الأمريكي الوحيد تجاه القضية .. "إن نهاية الحرب الباردة وقيام النظام الدولي الجديد الذي تسيطر فيه الولايات المتحدة على القرار الدولي في الأمم المتحدة والهيئات الدولية والإقليمية الأخرى بعد حرب الخليج (1991) فرض عليها التحرك لعقد مؤتمر السلام في الشرق الأوسط على أساس القرارين 242 و 338.. لكنها من ناحية أخرى تسير في اتجاه تشجيع الاحتلال الإسرائيلي وتمده بكل أسباب العدوان على شعبنا وأمتنا. وتكيل بمكيالين بالنسبة للشرعية الدولية.. وهي بذلت ضغوطاً لإلغاء قرار اعتبار الصهيونية حركة عنصرية.." [80].

النظام الدولي الجديد، والحال كذلك، خيب آمال عرفات والقضية الفلسطينية، تماما كما فعل النظام الدولي السابق خلال الحقبة الممتدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ولعل هذا الشعور بالإحباط، عربياً ودولياً، كان من أبرز أسباب تحول لغة عرفات ودبلوماسيته. من التركيز على

موازين القوي والحل المسلح إلى منطق التسوية السلمية. ومن منظورة، كان هذا يقتضي "المبادرة إلي نبذ العنف المسلح والاستناد إلي منطق الحق والعدل بين الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي وعدم تهديد أي منهما للأخر والتسوية السلمية بواسطة التفاوض" (81).

*****

يحسب لياسر عرفات أنه لم ينقطع عن متابعة رياح التفاعلات العربية والإقليمية والدولية من حوله.. وهو تعامل مع هذه الرياح والتفاعلات بثوابتها وتحولاتها، بقديمها وجديدها، وخاص غمارها، حاملاً لواء واحدة من أعقد القضايا التي عرفها التاريخ طراً. وهو اجتهد في قيادة السفينة الفلسطينية وسط هذه الغمار التي لم تكن في معظم أطوارها مواتية لمرور هذه السفينة إلي ضفاف آمنة. في اجتهاده ربما يكون أصاب وأخطأ، لكنه في كل الأحوال ساهم في بناء الحقيقة الفلسطينية السياسية وغير السياسية وطرحها على النظامين العربي والدولي بقوة ودأب وجهد يعرفه كل من اقترب منه على الصعيدين الشخصي والعام.

وفي كل الأحوال، فإننا نلحظ أن البيئيتين العربية والدولية ألقت عليه وعلى قضيته قولاً ثقيلاً، وأنه قضي نحبه وهو يضطلع بهذا العبء بطاقة عجيبة كانت مثاراً للإعجاب. حتى من بعض ألد خصومة وأعدائه..

## المراجع :


1. أنظر للمزيد، د. محمد خال الأزعر، ياسر عرفات ثائراً ورئيساً، شؤون عربية، العدد 120، شتاء 2004، ص5-16.
2. كان عرفات يردد بنفسه إنه ليس هاوياً في عالم السياسة.
3. تشهد بذلك أقوال قادة فلسطينيين ناصبوا عرفات المعارضة مطولاً في حياته، ولكنهم اعترفوا بأنه استشهد وهو في موقف الصلابة والذود عن ثوابت قضيته الوطنية.
4. بلال الحسن، عرفات قبل مدريد.. القوانين التي حكمت مسيرته السياسية، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد 61/60، خريف 2004، شتاء 2005، ص27 -29.
5. المصدر ذاته، ص30. وعن اللقاء بين عرفات وعبد الناصر أنظر، محمد حسنين هيكل، سلام الأوهام .. أوسلو ما قبلها وما بعدها، دار الشروق القاهرة، 1998، ص15-25.
6. أنظر للمزيد، محمد خالد الأزهري، السياسة الخارجية الفلسطينية قبل وبعد إعلان الاستقلال، شؤون فلسطينية، العدد 218/217، إبريل/ مايو 1991، ص3-21.
7. Selim, Mohamed E., The survival of non state actor, the foreign policy of plo, (in) Korany and A. E Hillal (Eds) The foreign policy of Arab States, Boulder Co, West view press, A ucp, 1988. P. 198.

8. أنظر عصام سخنيني، مكونات القرار في المجلس الوطني الفلسطيني.. الدورة الثانية عشرة، شؤون فلسطينية، العدد 35، يوليو 1974، ص6.
9. عن هذا الحوار راجع، المبدأ والواقع في الحوار الفلسطيني الأمريكي (تقرير)، شؤون فلسطينية، العدد 193، إبريل 1989، ص127 -131.
10. أنظر رسائل التطمينات الأمريكية للقيادة الفلسطينية وإلى إسرائيل، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد 8، خريف 1991، ص284-290.
11. أنظر، رسالة الرئيس بوش إلي أرييل شارون، صحيفة الحياة، 2004/4/15.
12. هيلين دانكوس (ترجمة عبد الله إسكندر)، السياسية السوفيتية في الشرق الأوسط 1955 - 1975، دار القمة ، بيروت، 1983، ص20.
13. أنظر، الأزهري، مصدر سبق ذكره، ص16. كذلك:

Maoz, Moshe, The Palestinian guarilla organization and soviet union, (in) The Palestinian arab politics, Jerusalem Academic press, 1975, P.93.

14. راجع للمزيد، معتز محمد سلامة، القرارات العربية بالمشاركة في مؤتمر مدريد 1991.. دراسة للقرارين السوري والفلسطيني، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، 1997.
15. بلال الحسن، مصدر سبق ذكره، ص32-33.
16. غازى خورشيد، دليل حركة المقاومة الفلسطينية، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، 1971، ص37.
17. ياسر عرفات يتحدث، ثورتنا كلمة السر، شؤون فلسطينية، العدد 86، يناير 1979، ص17.
18. المصدر ذاته، ص18.
19. أنظر، رسالة ياسر عرفات في الذكري الثامنة عشرة لانطلاقة الثورة، شؤون فلسطينية، العدد 134، يناير 1983، ص10.
20. ياسر عرفات يتحدث.. نظره شمولية للصراع، شؤون فلسطينية، العدد 98، يناير 1980، ص10.
21. المصدر ذاته، ص12.
22. المصدر ذاته، ص12.
23. المصدر ذاته، ص 17.
24. المصدر ذاته، ص17.
25. رسالة ياسر عرفات في الذكري الثانية والعشرين لانطلاقة الثورة، شؤون فلسطينية، العدد 167/166، يناير /فبراير 1987، ص10.

26. رسالة ياسر عرفات في الذكري السابعة والعشرين لانطلاقة الثورة، شؤون فلسطينية، العدد 226/225، ديسمبر 1991 ــ يناير 1992، ص4.
27. المصدر ذاته، ص4.
28. (*) أنظر، رسالة عرفات في الذكرى السابعة عشرة لانطلاقة الثورة، شؤون فلسطينية، العدد 123/122، يناير /فبراير 1982، ص4-10.
29. رسالة ياسر عرفات في الذكرى الحادية والعشرين لانطلاقة الثورة، شؤون فلسطينية، العدد 155/154، يناير /فبراير 1986، ص10.
30. رسالة ياسر عرفات في الذكرى الثانية والعشرين، مصدر سبق ذكره، ص11.
31. المصدر ذاته، ص12.
32. رسالة ياسر عرفات في الذكرى الثانية والعشرين لانطلاقة الثورة، مصدر سبق ذكره، ص11.
33. أنظر رسالة ياسر عرفات في الذكرى الثامنة عشرة..، مصدر سبق ذكره، ص8.
34. ياسر عرفات يتحدث، نظره شمولية..، مصدر سبق ذكره، ص15.
35. عرفات: ولي زمن الاستفراد السوري، شؤون فلسطينية، العدد 186، سبتمبر 1988، ص139.
36. المصدر ذاته، ص 140.
37. رسالة عرفات في الذكري الثانية والعشرين ..، مصدر سبق ذكره، ص11.
38. المصدر ذاته، ص5.
39. رسالة ياسر عرفات في الذكرى الخامسة عشر لانطلاقة الثورة، شؤون فلسطينية، العدد 98، يناير 1980، ص5.
40. ياسر عرفات يتحدث..، نظرة شمولية، مصدر سبق ذكره، ص18.
41. أنظر، رسالة عرفات في الذكرى الرابعة عشرة لانطلاقة الثورة، شؤون فلسطينية، العدد 75/74، يناير/فبراير 1978، ص6.
42. بلال الحسن، مصدر سبق ذكره، ص34.
43. للمزيد أنظر، سميح شبيب، منظمة التحرير الفلسطينية وتفاعلاتها في البيئة الرسمية العربية 1982 -1985، شرق برس، نيقوسيا 1988، ص96.
44. رسالة عرفات في الذكري الحادية والعشرين لانطلاقة الثورة، مصدر سبق ذكره، ص12.
45. رسالة ياسر عرفات في الذكرى السادسة والعشرين لانطلاقة الثورة، شؤون فلسطينية، العدد 214/213، ديسمبر 1990/يناير 1991، ص6.
46. أنظر، كلمة ياسر عرفات في افتتاح الدورة العشرين للمجلس الوطني الفلسطيني، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد 8، خريف 1991، ص248.
47. حديث لياسر عرفات، صحيفة الحياة اللندنية، 1993/3/6.

48. رسالة ياسر عرفات في الذكرى السادسة عشرة لانطلاقة الثورة، شؤون فلسطينية، العدد 110، يناير 1981، ص11.
49. رسالة ياسر عرفات في الذكرى الثامنة عشرة لانطلاقة الثورة، شؤون فلسطينية، العدد 134، يناير 1983، ص9.
50. كذلك، رسالة عرفات في الذكرى العشرين لانطلاقة الثورة، شؤون فلسطينية، العدد 143/142، يناير/ فبراير 1985، ص8.
51. أنظر، حوار صريح مع شفيق الحوت، عرفات كقائد ومسيرة الثورة الفلسطينية، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد 61/60، خريف 2004/ شتاء 2005، ص16 ،17.
52. أنظر مثلاً، حديث صحفي لياسر عرفات، شؤون فلسطينية، العدد 228/227، فبراير /مارس 1992، ص144.
53. رسالة ياسر عرفات في الذكرى الحادية عشرة لانطلاقة الثورة، شؤون فلسطينية، العدد 52، ديسمبر 1975، ص3.
54. ياسر عرفات، فلنشدد ضرباتنا، شؤون فلسطينية، العدد21 ، مايو 1973، ص6-8.
55. لقاء صحفي مع عرفات، اليوم السابع، باريس، 1990/7/9.
56. ياسر عرفات يتحدث، شؤون فلسطينية، العدد 86، يناير 1979، ص28.
57. لقاء صحفي مع عرفات، اليوم السابع، مصدر سبق ذكره.
58. رسالة ياسر عرفات في الذكرى الرابعة عشرة لانطلاقة الثورة، مصدر سبق ذكره، ص4-5.
59. رسالة أبو عمار في الذكرى الحادية عشرة لانطلاقة الثورة، شؤون فلسطينية العدد 52، ديسمبر 1975، ص5.
60. رسالة ياسر عرفات في الذكرى، الخامسة عشرة لانطلاقة الثورة، شؤون فلسطينية، العدد 98، يناير 1980، ص7.
61. رسالة عرفات إلى "مؤتمر السلام" بالقدس في 1990/2/17، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد 52، ربيع 1990، ص169.
62. نص كلمة ياسر عرفات في افتتاح الدورة الحادية والعشرين للمجلس الوطني الفلسطيني (1996/4/22)، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد27، صيف 1996، ص246.
63. رسالة ياسر عرفات في الذكرى الحادية والعشرين لانطلاقة الثورة مصدر سبق ذكره، ص 9-10.
64. رسالة ياسر عرفات في الذكرى الخامسة عشرة لانطلاقة الثورة، مصدر سبق ذكره، ص7.
65. عرفات: ولي زمن الاستفراد السوري، مصدر سبق ذكره، ص140.

66. أنظر، رسالة ياسر عرفات في الذكرى الثامنة عشرة لانطلاقة الثورة، شؤون فلسطينية، العدد 134، يناير 1983، ص6. كذلك رسالة عرفات في الذكرى العشرين لانطلاقة الثورة، شؤون فلسطينية، العدد 143/142، يناير/ فبراير 1985، ص6.
67. رسالة ياسر عرفات في الذكرى السادسة والعشرين لانطلاقة الثورة، شؤون فلسطينية، العدد 214/213، ديسمبر 1990/ يناير 1991، ص8.
68. أنظر، رسالة عرفات في الذكرى العشرين لانطلاقة الثورة، شؤون فلسطينية، العدد 143/142، ص9.
69. بلال الحسن، مصدر سبق ذكره، ص35.
70. لقاء مع عرفات، اليوم السابع، مصدر سبق ذكره.
71. المصدر ذاته.
72. رسالة ياسر عرفات في الذكرى الحادية والعشرين لانطلاقة الثورة، مصدر سبق ذكره، ص14.
73. لقاء صحفي مع عرفات، اليوم السابع، مصدر سبق ذكره.
74. للمزيد راجع، محمد خالد الأزعر، الجماعة الأوروبية والقضية الفلسطينية، دار الجليل، عمان، 1991.
75. لقاء صحفي مع عرفات، اليوم السابع، مصدر سبق ذكره.
76. عرفات: إسرائيل تتخبط سياسياً، شؤون فلسطينية، العدد 192، مارس 1989، ص147.
77. رسالة عرفات إلى مؤتمر السلام في القدس، مصدر سبق ذكره، ص168.
78. كملة ياسر عرفات في افتتاح الدورة العشرين للمجلس الوطني الفلسطيني، مصدر سبق ذكره، ص142.
79. رسالة ياسر عرفات في الذكرى السادسة والعشرين لانطلاقة الثورة، مصدر سبق ذكره، ص7.
80. أنظر، محمد حسنين هيكل، مصدر سبق ذكره، ص304.
81. رسالة ياسر عرفات في الذكرى السابعة والعشرين لانطلاقة الثورة، مصدر سبق ذكره، ص9.
82. المصدر ذاته، ص9.
83. كلمة ياسر عرفات بمناسبة الذكرى العاشرة لانطلاقة السلام (استوكهولم 1998/12/5)، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد 37، شتاء 1999، ص208.